

الفصل الأول:

الاستشراق والبنية الثقافية النصرانية

أولاً - مفهوم الاستشراق والمستشرقين عالمياً:

لقد أصبح الاستشراق اليوم علماً له كيانه ومنهجه ومدارسه وفلسفته، ودراساته ومؤلفاته وأغراضه وأتباعه ومعاهده ومؤتمراته، مما يحتم على الباحث أن يقوم بتحديد مفهومه والوقوف على معالنه البارزة. وقبل أن نتناول الحديث عن نشأة الاستشراق وتاريخه يجب أن نوضح ما المقصود من الكلمتين (الاستشراق) و(المستشرقون) في اللغة والاصطلاح للدلالة على فهم هذين المصطلحين اللذين يتردد ذكرهما كثيراً في التاريخ الحديث.

المفهوم اللغوي للاستشراق:

تناولت المعاجم لفظة (الاستشراق) موضحة تسميتها ودلالاتها واستعمالاتها⁽¹⁾. وكلمة (استشراق) مشتقة من كلمة (الشرق)، وهي تعني مشرق الشمس وترمز إلى هذا الحيز المكاني من الكون⁽²⁾. وقد وردت عدة آيات تشير إلى هذا المعنى وتبين أنه ضد الغرب أي جهة غروب الشمس، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ (البقرة: 115) ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ (البقرة: 142) ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ (البقرة: 258) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة⁽³⁾.

أما إذا أضيف إليها الألف والسين والتاء أي (الاستشراق) فهي تعني طلب الشرق، أي علوم الشرق وآدابه وأديانه بصورة شاملة، هذا في معاجم اللغة العربية، أما في اللغات الغربية فهناك من يرى أن المقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي، وإنما الشرق المقترن بمعنى

1 جهور عبد النور، المعجم الأدبي، ط1، دار العلم للملايين (بيروت، 1979)، ص17.
 2 محمد السروتي، تاريخ الأندلس والدراسات الاستشراقية الإسبانية (المغرب، دت)، ص56.
 3 صابر عبد الرحمن طعيمة، الإلحاد الديني في مجتمعات المسلمين، نشأته وتطوره ومذاهبه المعاصر، ط1، دار الجيل (بيروت، 2004)، ص277-278.

الشروق والضياء والنور⁽¹⁾. وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي. كما يُعرّف بأنه مصدر الفعل (استشرق) أي اتجه إلى الشرق وتزين بزّي أهله في لغته. ولفظة الاستشراق ومشتقاتها مولدة استعمالها المحدثون من ترجمة (Orientalism)، ثم استعملوا من الاسم فعلاً، فقالوا استشرق وليس في اللغات الأجنبية فعل مرادف للفعل العربي. والمدققون يؤثرون استعمال «علماء المشرقيات» بدلاً من مستشرقين، ولكن لفظتي: استشرق، ومستشرق، شاع استعمالهما بين الناس ولا بأس بذلك. عرّف صاحب معجم متن اللغة كلمتي الاستشراق والمستشرقين بقوله: الاستشراق طلب علوم الشرق ولغاتهم، ويسمى من يقوم بذلك (مستشرق)، وجمعه مستشرقون، وما ينجزونه يسمى استشراقاً.

المفهوم الاصطلاحي للاستشراق:

إذا أردنا أن نحدد المفهوم الاصطلاحي للاستشراق فيجب أولاً الرجوع إلى المعاجم الحديثة، ثم إلى رأي علماء الغرب وعلماء الأمة الإسلامية حتى يكون بالإمكان بعد ذلك القيام بمحاولة وضع تعريف محدد لهذا الاصطلاح⁽²⁾.

وقد جاء في بعض المصادر اللغوية الحديثة: «استشرق: طلب علوم الشرق ولغاتهم (مولدة عصرية) تقال لمن يُعنى بذلك من علماء الفرنجة»⁽³⁾. وقد وجدنا تعريفات عديدة تحدد مفهوم الاستشراق وتحاول أن تغطي أبعاده. فقد وضعت تعاريف عدة ومفاهيم مختلفة، لكنها تصب في الغالب في بوتقة واحدة أو ضمن إطار واحد. فقد ورد المصطلح في موسوعة «لاروس» تعريف بمفهوم الاستشراق (Orientaliste) بأنه «العالم المصطلح بمعرفة الشرق وثقافته وآدابه». إذن، فالاستشراق هو «علم يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضاراتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم»⁽⁴⁾.

ويرجع مصطلح الشرق هذا إلى بدايات العصور الوسطى الممتدة إلى الحقبة التي كان يعتقد فيها خطأ أن البحر المتوسط يقع في وسط العالم، وكانت الجهات الأصلية تتحدد بالنسبة إليه، فلما انتقل مركز ثقل الأحداث السياسية بعد ذلك من البحر المتوسط إلى الشمال بقي مصطلح الشرق على الرغم من ذلك دالاً على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط. ويبدو أن مصطلح الشرق لم يقتصر على هذه الرقعة الجغرافية فحسب بل تجاوزها إلى غرب الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، وذلك بعد الفتوحات الإسلامية، فعدت كل من مصر والمغرب وشمال أفريقيا

1 السروتي، المصدر السابق، ص56.
 2 يحيى مراد، ردود على شبهات المستشرقين، (دم، د ت)، ص24.
 3 الشيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة، ج3، ص311.
 4 وثاب خالد الجعفر، الاستشراق بين الأزمة والنهاية، مستل من شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، منتديات الملتقى قسم الفكر والتربية.

وما تعرف من سكان هذه الدول من الشرق، فشمّلها هذا الاسم باعتبار دينها الإسلامي ولغتها العربية. ويختص الاستشراق أيضاً بشمال غرب أفريقيا - أي بلاد المغرب - بلد غروب الشمس⁽¹⁾.

وفي اللاتينية تعني كلمة (Orient) (مشرق): يتعلم أو يبحث عن شيء ما، وبالفرنسية تعني كلمة (Orienter) (شرقي) وجه أو هدى أو أرشد، وبالإنكليزية (Orientation)، و (orientate) تعني: توجيه الحواس نحو اتجاه أو علاقة ما في مجال الأخلاق أو الاجتماع أو الفكر أو الأدب نحو اهتمامات شخصية في المجال الفكري أو الروحي. ومن ذلك أن السنة الأولى في بعض الجامعات تسمى السنة الإعدادية (Orientation). وفي الألمانية تعني كلمة (Sich Orientieren) «يجمع معلومات (معرفة) عن شيء ما»⁽²⁾. إذاً فالاستشراق بهذا المعنى الاصطلاحي مفهوم أكاديمي. وقد نشأ هذا المفهوم في أوساط جامعية، ولا زال يستخدم في أوساط أكاديمية، ولما كان الإسلام هو الدين الغالب فقد أصبح معنى الاستشراق البحث عن معرفة الإسلام والمسلمين وبلاد المسلمين عقيدة وشرعية وتاريخاً ومجتمعاً وتراثاً...⁽³⁾.

كما يعرف الاستشراق اصطلاحاً أيضاً بأنه جهد علمي غربي موصول ومتصل استمر لقرون من الزمان بلا انقطاع، في تطور مستمر حتى انتهى إلى منظومة فكرية مركبة ومعقدة. وقد أريد بهذا الجهد إنشاء خزانة معرفية واسعة منظمة وهادفة عن الشرق عامة والعالم الإسلامي خاصة. وكان الاعتقاد السائد في كل المؤسسات الثقافية الإسلامية أن الاستشراق مقرون بالتنصير والاستعمار فهو بهذا المعنى صدر عن مواقف تتصل بتكوين مؤسسات ساعدت في نمو كل الذين عملوا في الاستشراق⁽⁴⁾.

إذاً، في الحقيقة يُعدّ الاستشراق الوجه الآخر لعملة التنصير، وقد تنوعت الأسماء والمسميات والهدف واحد، كما أن التنصير ظاهر، والاستشراق نفاق فهو نار تحت الرماد. ومن المعروف أنهم يعدونه اليوم علماً له محتويات العلم من منهج وفلسفة ومدارس ومؤلفات وأفاق ومظاهر وخصائص وأهداف...، ومن الواجب معرفة ماهية هذا العلم والوقوف على معالمه بل والأهم من ذلك معرفة البعد الديني في آراء وأفكار هؤلاء المستشرقين عند دراستهم لتراث العالم الإسلامي.

-
- 1 عبد الباسط عبد الصمد أحمد الشاوي، الغزو الأوروبي للفكر العربي الإسلامي، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الشريعة، جامعة بغداد، 1987، ص 83.
 - 2 مازن بن صلاح مطبقاني، الاستشراق، (السعودية، دت)، ص 3.
 - 3 أحمد عبد الرحيم السابح، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، ط 1، دار المصرية - اللبنانية (القاهرة، 1996)، ص 45.
 - 4 رياض هاشم هادي، الحركة الاستشراقية (الموصل، 2008)، ص 12.

أ - الاستشراق في نظر علماء الغرب:

أورد علماء الغرب تعاريف متعددة لهذا اللفظ وسنقتصر منها على ما يأتي:

مما يجدر ذكره أن بين المفكرين من يرى أن الاستشراق علم يختص بدراسة لغة من لغات الشرق وأدابها والتبحر فيها من قبل علماء وأساتذة ومفكرين من الغرب، وقد ذهب إلى هذا الرأي عدد قليل من المستشرقين، منهم المستشرق البريطاني الدكتور «آرثر جون». «آربري» 1905 (1) Arthur John Arberry 1969- إذ يقول في كتابه «المستشرقون البريطانيون» عندما سأل قائلاً: ما هو الاستشراق وما كنه المستشرق؟ ومن الجلي أن الكاتب حين يعرض لمثل هذا الموضوع الواسع الذي ما يزال الجمهور على غير معرفة به، يحسن به أن يحاول الوصول إلى اتفاق بينه وبين قارئه حتى يتعرفوا موقفهم تعرفاً صحيحاً. ومما يزيد من ضرورة هذا التفاهم أن الاستشراق ومثله في ذلك مثل كثير من فروع العلم الأخرى، قد تخطى حدوده إلى ميادين تنتمي في حقيقتها إلى علوم أخرى مستقلة عنه وإن كانت متجانسة معه، حتى إن المستشرق في هذه الأرض التي لا تنتمي له يشارك في عمله كعالم الآثار والحفريات وعالم الصرف والاشتقاق والفيلسوف وعالم اللاهوت والموسيقي والفنان⁽²⁾.

والمدلول الأصلي لاصطلاح «مستشرق» كان في عام (1683) لأحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية⁽³⁾، وفي عام (1691) يقول المستشرق البريطاني «آربري»: وجدنا «أنتوني وود» يصف «صموئيل كلارك» بأنه استشراقي ناب، يعني بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية، وقد جاء في تعليقاته «بيرون» وإلماعه الكثيرة دلالة على استشراق عميق. وفي خلال المجادلة التعليمية بالهند التي حسمها تقرير «ماكولي» الشهير في عام (1834)، كان المستشرقون أولئك الذين

1 مستشرق انكليزي معروف بالتعصب ضد الإسلام والمسلمين. ومن محرري «دائرة المعارف الإسلامية» ولد في 12 مايو 1905 في مدينة بورتسموث بجنوب بريطانيا، التحق بجامعة كامبريدج لدراسة اللغات الكلاسيكية اللاتينية واليونانية. وشجعه أحد أساتذته (منس) على دراسة العربية والفارسية. ارتحل إلى مصر لمواصلة دراسته للغة العربية. عاد إلى مصر ليعمل في كلية الآداب رئيساً لقسم الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية) وزار فلسطين وسوريا ولبنان. اهتم بالأدب العربي فترجم مسرحية مجنون ليلى لأحمد شوقي كما حقق كتاب «التعرف إلى أهل التصوف». واصل اهتمامه بالتصوف وذلك بنشره كتاب (المواقف والمخاطبات) للنفري وترجمه إلى الإنكليزية. عمل آربري مع وزارة الحرب البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية مهتماً بشؤون الإعلام والرقابة البريدية. وأصدر كتابه «المستشرقون البريطانيون» (1943) تولى منصب أستاذ كرسي اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، ثم انتقل إلى جامعة كمبردج ليحتل منصب أستاذ كرسي اللغة العربية في هذه الجامعة. ومن المؤسف أنه أستاذ لكثير من المصريين الذين تخرجوا في الدراسات الإسلامية واللغوية في انكلترا. ومن كتبه: «الإسلام اليوم» الذي صدر في عام (1943) و «ترجمة القرآن» و صدر في عام (1950)، و «مقدمة في تاريخ التصوف» و صدر في عام (1947). انظر: مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، دار الوراق للنشر والتوزيع (دم، دت)، ص39؛ الاستشراق، ج2، إصدارات مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، ص32.

2 طعيمة، المصدر السابق، ص282.

3 تركي المغيظ، «صورة العرب في مرآة الاستشراق الألماني»، مجلة الكويت (الكويت)، العدد 270، نيسان 2006، مستل من شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، الموقع <http://kuwaitmag.com>.

نادوا بالتعليم والأدب الهنديين⁽¹⁾، بينما سمي معارضوهم الذين رغبوا في أن تكون الانكليزية أساس التعليم بالهند «المتجلزون»، وما أنتجته هذا النزاع المشهور من الحزازات ألصق باسم المستشرق قدراً من القدر والنقد... إلى أن قال: «أما قاموس أكسفورد الجديد فيحدد المستشرق بأنه تبحر في لغات الشرق وآدابه»⁽²⁾.

هذا بإيجاز شديد هو رأي المستشرق البريطاني والذي يتضمن اعترافه بأن هناك أناساً من الغربيين لهم عناية بدراسات كثيرة عن الشرق في غير مجالي الأدب واللغة⁽³⁾.

أما الاستشراق في نظر علماء الروس فهو يطلق على كل ما يُبحث من أمور البلاد الشرقية وثقافتها وتاريخها، ومنه ما يختص بالإسلام والعالم الإسلامي. ونقصد به في هذا البحث التيار الفكري الذي يتمثل في الدراسات المتنوعة عن العالم الإسلامي بما يشمل حضارته وديانته ومذاهبه وآدابه ولغاته وثقافته⁽⁴⁾.

ويعرف «مكائيل جويدي»⁽⁵⁾ 1844-1935 Guidi M. علم الاستشراق قائلاً: «الوسيلة لدراسة النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب إنما هو «علم الشرق» بل نستطيع أن نقول إن غرض هذا العلم الأساسي ليس مقصوراً على مجرد درس اللغات أو اللهجات أو تقلبات تاريخ بعض الشعوب كلا، بل من الممكن أيضاً أن نقول: إنه بناء على الارتباط المتين بين التمدن الغربي والتمدن الشرقي فعلم الشرق ليس إلا باباً من الأبواب التاريخية والروح الإنسانية... وليس صاحب علم الشرق الجدير بهذا اللقب هو من يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة أو يستطيع أن يصف عادات بعض الشعوب، بل هو من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوى الروحية الأدبية الكبيرة التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية. والمستشرق من وجهة نظر «جويدي» هو من تعاطى درس الحضارات القديمة ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القرون الوسطى مثلاً أو في النهضة الحديثة... وعلم الشرق هذا علم من علوم الروح (Sciences de L'esprit) يتعمق في درس أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضارتها ثم يستفيد من البحوث الجغرافية والطبيعية أن يسمى كما سميناه

- 1 آ. أربري، المستشرقون البريطانيون، ترجمة محمد السوقي النويهي، مطبعة وأيام كولينز (لندن، 1946)، ص7.
- 2 طعيمة، المصدر السابق، ص282؛ مراد، ردود على شبهات...، ص25.
- 3 طعيمة، المصدر السابق، ص282-283. ولمزيد من التفاصيل انظر: آ. أربري، المستشرقون البريطانيون، ترجمة محمد السوقي النويهي، مطبعة وأيام كولينز (لندن، 1946).
- 4 إلمير رفائيل كولييف، كتاب القرآن وعالمه للمستشرق الروسي يفيم ريزفان ومزاعمه حول كتاب الله، (دم، دت)، ص2.
- 5 مستشرق إيطالي ولد في روما وتعلم العربية في جامعة روما وتولى تدريس العربية فيها. ودعته الجامعة المصرية لتدريس الأدب العربي فيها وله العديد من البحوث في اللغة العربية وآدابها وهو بمستوى تيودور نولدكه، وساهم في نشر مخطوطات في التاريخ الإسلامي وعلم اللغة. انظر: المنجد، المصدر السابق، ص123؛ الاستشراق، ج2، إصدارات مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، ص32.

درس تاريخ الروح الإنساني من وجهة نظر الشرق؛ لأن إظهار قوى الروح واستعدادها يختلف باختلاف الزمان والمكان⁽¹⁾.

ويمضي «مكسيم رودنسون» 2004 – 1915 Maxime Rodinson⁽²⁾ في دراسته لتاريخ الاستشراق قائلاً: «وهكذا ولد الاستشراق وظهرت كلمة مستشرق في اللغة الانكليزية بحدود عام (1779)، كما دخلت كلمة الاستشراق معجم الأكاديمية الفرنسية في عام (1838)، وتجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق، ولم يكن المتخصصون بعد يشكلون العدد اللازم بحيث يمكنهم تشكيل جمعيات أو مجلات متخصصة في بلد واحد أو شعب واحد أو منطقة واحدة من الشرق، ومن الناحية الأخرى كثيراً ما كان أفق هؤلاء المستشرقين يشمل عديداً من المجالات بطريقة غير متوازنة في عمقها، ومن هنا بدأ تصنيفهم «كمستشرقين» وشهدت فكرة الاستشراق تعمقاً كبيراً إلا أنها تعرضت كذلك لأضرار وندوب، وكان الشرق يأخذ مكانه في مؤلفات القرن الثامن عشر إلى جانب الغرب في أفق شمولي⁽³⁾.

وباستخدام هذا المصطلح في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كان «المستشرق» معنىً ثقافياً وعلمياً على حد سواء. فالمستشرقون الثقافيون، ومن ضمنهم الرسامون والكتّاب، هم أولئك الذين يستمدون إلهامهم من الشرق. أما المستشرقون العلميون فهم المتخصصون باللغات والثقافات الشرقية، لتمييزهم عن «الكلاسيكيين»، المتخصصين باللغات والثقافات الكلاسيكية (اللاتينية واليونانية). ونظراً لأن مثل هذا المستشرق هو أكثر من مجرد متخصص باللغات، فقد كان يُفترض إنسانياً إنه يمتلك معرفة حقيقية معقّمة لواحدة أو أكثر من ثقافات المشرق ويكرس نفسه لدراسة اللغات والآداب الشرقية في الماضي والحاضر، فضلاً عن المعالم الثقافية الأخرى في ميداني الأدب والآثار، ويُفترض كذلك أن بحثه عن المعرفة الرصينة يميزه

1 م. أ. جويدي، علم الشرق وتاريخه العمراني (دم، 1347)، ص 11-14.

2 مستشرق فرنسي من أهم المتخصصين في تاريخ الأديان. ولد في باريس من أبوين يهوديين مهاجرين من روسيا، وتربيته غلب عليها الفكر الشيوعي والاشتراكي. وقد دخل إلى «معهد اللغات الشرقية» وهناك برع رودنسون في دراسة اللغات: التركية، والعربية الفصحى والحشية، كما تعلم اللهجات المغربية والمشرقية، وفي عام (1937)، تخرج من المعهد وانطلاقاً من دراسته، اعتبر رودنسون متخصصاً في علم الألسنية لا مثيل له، كان يلم بأكثر من ثلاثين لغة. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية التحق بالجيش الفرنسي وأُرسل إلى الشرق، فكان لبنان أول مكان أو أول لقاء له بالعالم العربي. وعن هذه الفترة، كتب بعد أعوام «الجندي المستعرب» الذي وصف فيه إقامته في لبنان. وبعد تسريحه من الجيش فضل البقاء للإقامة في لبنان فدرّس اللغة الفرنسية في مدرسة تابعة لجمعية المقاصد الإسلامية في مدينة صيدا. وفي لبنان أيضاً، التقى بالشيوعيين العرب خاصة في إسفاره بهدف توسيع اتصالاته وكان في حينه يعمل في «دائرة الآثار» فسافر إلى مصر وفلسطين للبحث عن الكتب القديمة في بلدان الشرق الأوسط. عاد إلى فرنسا عام 1947 وعمل في المكتبة الوطنية ولكن في دائرة المخطوطات العربية المتخصصة، ثم انتقل إلى مهنة التعليم في معهد للدراسات العليا في اللغات في باريس. والى جانب عمله التعليمي، كان أهم مؤلفاته «محمد» (1961)، «الإسلام والرأسمالية» (1966)، «الماركسية والعالم الإسلامي» (1972)، «سحر الإسلام» (1980). انظر: جريدة الشرق الأوسط (السعودية)، العدد 9211، 7 ربيع الثاني، 2004.

3 م. رودنسون، صورة العالم الإسلامي في أوروبا، دار الطليعة (د. م، 1970)، ص 74.

عن غيره من المستشرقين الثقافيين، الذين كانوا أنصاراً متحمسين للمشرق⁽¹⁾.

كما أن تفكير الغرب نحو الشرق كان مبنياً على الاستحواذ على مقدرات الشرق وإخضاع شعوبه، يقول الدكتور ادوارد سعيد عن المستشرق: «فكل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه، ويسري ذلك سواءً أكان المرء مختصاً بعلم الإنسان «أنثروبولوجي» أم بعلم الاجتماع أم مؤرخاً أم فقيه لغة « فيلولوجيا » في جوانبه المحددة والعامّة على حد سواء فهو مستشرق، وما يقوم هو أو هي بفعله هو استشرق»⁽²⁾. والاستشرق في النهاية كان يعبر عن رؤية سياسية للواقع، رؤية روجت بنيتها للفرق بين المألوف (نحن) = أوروبا = الغرب، وبين الآخر (هم) = الشرق = الإسلام والمسلمون، وقد نظر المفكرون الغربيون نظرة استعلائية مشوبة بالخوف والحذر إلى الشرق وإلى الإسلام تحديداً فإن الإسلام في نظرهم صاعق التأثير على المخالف له⁽³⁾.

وبهذا الاعتبار فالمستشرق هو «الغربي الذي يدرس تراث الشرق» ولا بد لدراسة هذا التراث توفر الشروط الواجب توفرها في العالم المختص المستشرق وهي «إتقان لغة الشرق والتخصص بأبرزها آثاراً في التاريخ والفنون والعلوم» لهذا يرى المستشرق الألماني «البرت ديتريش A. Dietrich» أستاذ كرسي الدراسات الإسلامية بجامعة غوتنغن أن المستشرق: «هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه»⁽⁴⁾، ولكي يتسنى له ذلك يتوجب عليه دراسة اللغات الشرقية وإتقانها. ومن ثم أخذت الكلمة تدل على الإنسان الذي وهب نفسه للاهتمام بما يدور في الشرق من مجالات مختلفة من حيث الكشف والجمع والفهرسة ومن ثم الدراسة والتحقيق والنثر والترجمة والتصنيف⁽⁵⁾.

ويقول أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس «مايكل مورني»: عند الناس تعريفات مختلفة. «المستشرقون هم أساتذة الغربيين الذين يهتمون باللغة العربية والفارسية والتركية. والمستشرقون عند الأمريكيين هم المهتمون بالشرق الأوسط والبريطانيون يدخلون الهند والصين في الإطار الفكري للشرق الأوسط»⁽⁶⁾.

- 1 جان جاك واردنبرغ، المستشرقون، ترجمة انيس عبد الخالق محمود، منشور على شبكة الاتصالات الدولية (الانترنت)، إسماعيل علي محمد، الاستشرق بين الحقيقة والتضليل، ط3 (المنصورة، 2000)، ص10.
- 2 ادوارد سعيد، الاستشرق - المعرفة - السلطة - الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، ط1 (بيروت، 1981)، ص38؛ طعيمة، المصدر السابق، ص284.
- 3 الكيلاني، المصدر السابق، ص3.
- 4 الشاوي، المصدر السابق، 1987، ص83.
- 5 تركي المغيض، صورة العرب في مرآة الاستشرق الألماني، مجلة الكويت، العدد 270، نيسان 2006، مستل من شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، الموقع: <http://kuwaitmag.com>
- 6 طعيمة، المصدر السابق، ص283.

فالإسلام عند العقل البريطاني له علاقة بالهند بسبب العلاقة التاريخية التي تربط بين بريطانيا وبين الهند، لأن هناك حواراً مستمراً بين الهنود أنفسهم مسلمين وغير مسلمين من جهة والهنود مع البريطانيين من جهة أخرى، ثم يقول: «الاستشراق عندي درس اللغة والأدب خاصة لا الدروس الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية». ثم يصرح قائلاً: «أعتبر نفسي غير مستشرق لأنني مؤرخ، فتعريفني مبني على التخصص العلمي؛ فالتخصص في دراسات «الشرق الأوسط»⁽¹⁾، مستشرق وإن كان عربياً مسلماً، ودراسة الإسلام داخلة في ذلك⁽²⁾.

ب - الاستشراق في نظر علماء الأمة الإسلامية:

أما علماء العرب فقد ذهبوا إلى مفاهيم عديدة لفهم الاستشراق نشير إلى بعضها في هذه الكلمة:

لم يغفل الباحثون المسلمون نظرة الغربيين لهذا المجال المعرفي، فذكر محمد أحمد دياب أن الاستشراق «علم له أصوله ومقوماته وخططه وأهدافه، ولا ننكر ما قام به المشتغلون به من بحوث ودراسات في الميادين العلمية المختلفة وفي العلوم الإسلامية بخاصة فقد كان لها دورها الإيجابي وقيمتها العلمية كما كان لها أيضاً دورها السلبي». ولكنه مع ذلك يرى أن «علم الاستشراق إنما هو حرب الكلمة التي شنّها الغرب المسيحي على الشرق الإسلامي منذ القرن الثامن عشر للميلاد وما زال يستخدمها ضدنا حتى الآن، وإن لبست أثواباً مختلفة على مر العصور تحت شعار الموضوعية والمنهجية كي يحقق أهدافه»⁽³⁾.

إن تحديد مفهوم هذه الكلمة فيه صعوبة، ومع ذلك يقول محمد أمين بني عامر أن «المستشرقين»: جماعة من علماء الغرب، من مسيحيين ويهود وملحدين درسوا لغات الشرق من عربية وفارسية وعبرية وسريانية وغيرها، وقد أنكب كثير منهم على دراسة اللغة العربية والاطلاع الواسع على علومها ومعارفها، لاتخاذ هذه الدراسة وسيلة للتعلم في الإسلام من أجل التهوين من شأن الدعوة الإسلامية والتقليل من أثرها في الحياة، وفي الارتفاع بالمستوى الإنساني وبدورها في إنقاذ الإنسانية، وتحريرها من العبودية، وإخراجها من الظلمات إلى النور»⁽⁴⁾.

1 إن تعبير مصطلح الشرق الأوسط قد استخدم لأول مرة عام (1902) من قبل ضابط بحري هو الكابتن «الفرد ماهان» صاحب نظرية «القوة البحرية» في مقال له نشر بعنوان «الخليج الفارسي والعلاقات الدولية» في إحدى المجلات البريطانية في طهران عام 1902. بيد أن معظم الطروحات بصدد مضمون هذا المصطلح تتفق على المنطقة الواقعة بين الهند وشبه جزيرة العرب، (1902) العربي، ويشمل هذا المصطلح الكيانات السياسية الآتية: مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن وهذه الدول تمثل قلب هذا النظام. لمزيد من التفاصيل انظر: حامد يوسف حمادي، «التسوية وطبيعة الصراع مع العدو الصهيوني» مجلة الحكمة (بغداد)، العدد 19، السنة الرابعة، 2001، ص15-16، Encyclopedia Birtannic, Vol, 150, pp.408-409، إياد علي الهاشمي، بواكير النشاط الأمريكي في العراق حتى عام (1921)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة الموصل، 2001، ص11.

2 طعيمة، المصدر السابق، ص283-284.

3 مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق ومكانته بين المذاهب الفكرية المعاصرة (دم، دت)، ص5؛ محمد أحمد دياب، أضواء على الاستشراق والمستشرقين، دار المنار (القاهرة، 1989)، ص7.

4 محمد أمين حسن محمد بني عامر، المستشرقون والقرآن الكريم، ط1، دار الأمل (الأردن، 2004)، ص16.

كما تحدث بسام عجبك إلى أن تعريف الاستشراق مجملاً «هو دراسات وبحوث قام بها غربيون.. تهدف إلى دراسة العالم الشرقي ولاسيما الإسلامي، ديناً وتاريخاً وحضارة وعادات وشعوباً، بهدف فهم حقيقة الإسلام، وقد نشأت منذ أكثر من ألف سنة في العالم الغربي، وما زالت موجودة حتى يومنا هذا، إلا أنها في الفترات الأخيرة بدأت تأخذ أشكالاً أخرى في الظهور، باسم مستشارين اقتصاديين أو سياسيين أو لغويين يتبعون وزارات الخارجية والاقتصاد والمال والحربية في العالم الغربي، ومهمة هذه الدراسات فهم طبيعة العالم الإسلامي وتوجهات المسلمين، وذلك من أجل التعامل الغربي معهم»⁽¹⁾.

ويصف إبراهيم عبد المجيد اللبان أصحاب الاستشراق فيقول: «المستشرقون اسم واسع يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بالعالم العربي الإسلامي، والهند والفرس والصين واليابان، وغيرهم من بلدان الشرق»⁽²⁾.

فالاستشراق ظاهرة فكرية معقدة ومتشابكة منذ ظهوره كمؤسسة علمية وفي تاريخه التأسيسي وجذوره العميقة⁽³⁾. وجاء تعريفه في موسوعة المذاهب والأديان: بأنه هو ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما⁽⁴⁾.

هذا ومن خلال استقراء المراجع والدراسات التي تناولت هذا الموضوع، يلاحظ أن المستشرق لا بد أن يكون غريباً، ولا فرق بين أن يكون نصرانياً أو يهودياً أو مسلماً، أو ملحداً ينكر الدين من أصله. وإن كان السواد الأعظم ممن ركب حركة الاستشراق هم من غير المسلمين، المهم أنه عالم غربي يطلب دراسة علوم الشرق، خاصة الشرق الإسلامي العربي⁽⁵⁾.

كما أن الاستشراق عند كثير من الباحثين المسلمين إنما هو أسلوب من أساليب الغزو الفكري، فقد كتب محمد عبد الفتاح عليان حول ذلك قائلاً: «من بين أساليب الغزو الفكري كان الاستشراق مغلفاً خطورته بشكل علمي واضعاً سمه في عسل المنهج، والجديد فيه غير أن خلق المسلم يقتضينا أن نقرر أن استغلال الاستعمار للاستشراق ليس معناه أن الاستشراق كله

- 1 غادة الجوابرة، الاستشراق والإسلام بين الموضوعية والتزيف، مستل من شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، الموقع: <http://www.islamweb>
- 2 إبراهيم عبد المجيد اللبان، المستشرقون والإسلام، مجمع البحوث الإسلامية (دم، 1975)، ص 4-5.
- 3 رعد شمس الدين الكيلاني، الاستشراق التكويني - الوسائل - الأهداف، ديوان الوقف السني مركز البحوث والدراسات الإسلامية (بغداد، 2006)، ص 3.
- 4 الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للسباب الإسلامي، ط2 (الرياض، 1989)، ص 33.
- 5 محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل...، ص 12-13.

جملة وتفصيلاً دار في هذا الفلك، إذ لم نعدم من أدى به إنصافه إلى بيان الحقيقة، وإن كان هؤلاء قد نقلوا من حقيقة الحضارة الإسلامية أصالتها وأفادوا بها الغرب في نهضته فإن هذا قد اعترف به منصفون منهم وإن قلوا⁽¹⁾.

كما يعرفه الأستاذ أنور الجندي بقوله: « ولما كان الاستشراق هو المصنع الأساسي لمخططات التعريب بينما التبشير هو أدواته، فإن أصدق تعريف للاستشراق هو: «استخدام العلم في خدمة السياسة»، ثم يقول «ومادة الاستشراق هي أعظم معطيات التبشير عن طريق المدرسة والصحيفة وفي مجال التعليم لدعم خططه. وإثارة عوامل الخلاف وتوريث الشبهات»⁽²⁾.

ويشير حسين الهراوي إلى علم الاستشراق ويقول: «وعندي أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة، وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير، ولا يخفى عليك أن التاريخ الإسلامي ينقسم إلى قسمين: الأول منه هو الإسلام من حيث هو دين وعناصره: القرآن والحديث وحياة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، والقسم الثاني منه هو تاريخ الدولة العربية التي نشأت وعاشت في الإسلام، وقد خدم المستشرقون هذا القسم حقاً، لأنه نوع من المباحث التاريخية الحرة، أما القسم الأول منه، فهو بيت القصيد ولا يتصدى له كل المستشرقين والذين يتصدون له يكون كلامهم مملوءاً بالتشكيك والاستنتاج الخاطئ والغمز واللمز، هذا إن لم يكيلوا التهم جزافاً، ويرموا الدين الإسلامي بما شاءت عقائدهم الخاصة وفائدتهم المادية»⁽³⁾.

كما يتناول عدنان الوزان الاستشراق «على أنه اتجاه فكري يُعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة ودراسة حضارة الإسلام بصفة خاصة. كما يتناوله من ناحية أهداف الاستشراق، فقد انطلق الاستشراق من فكرة واحدة هي فكرة الغزو الاستعماري والعقائدي «بقصد تمكين الحضارة الغربية المسيحية المادية من السيطرة على الحضارة الإسلامية وإلغاء دورها في الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية وتشكيك المسلمين بدينهم ومحاولة إبعادهم وغيرهم عنه». ويؤكد الوزان هذا الأمر في مواقع أخرى من كتابه إذ يقول في موضع آخر: «إن من أهداف المستشرقين الوقوف في وجه الشعوب التي لا تدين بالإسلام لمنعهم من الدخول في دين الحق الدين الإسلامي بما يقومون به من تشويه للإسلام وتغيير للصورة الحقيقية لهذا الدين الحنيف. وإن إظهار الإسلام بصورة محرقة مستكرهة أمام الشعوب غير المسلمة يقصد إلى صدهم عن سبيل الله وما نزل من الحق»⁽⁴⁾.

1 مطبقاني، المصدر السابق، ص5.
 2 بني عامر، المصدر السابق، ص15.
 3 حسين الهراوي، «نحن والمستشرقون» مجلة المعرفة (مصر) العدد 34، يوليو 1932م؛ يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، (دم، د.ت)، ص14-15.
 4 بني عامر، المصدر السابق، ص5.

ولقد قدّم أحمد عبد الحميد غراب مجموعة من التعريفات للاستشراق استناداً إلى العديد من المراجع في هذا المجال ثم اختار أن يجمع بينها في تعريف واحد وهذا التعريف هو: «دراسات أكاديمية» يقوم بها غربيون كافرون - من أهل الكتاب بوجه خاص - للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب: عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة وتاريخاً ونظماً وثروات وإمكانات... بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي.»⁽¹⁾ كما يعرف الدكتور محمد خليفة حسن: (الاستشراق على أنه من أقدم الحركات الفكرية الغربية المستخدمة للعلم والمستغلة له، كوسيلة لدراسة الشرق من ناحية، وتحقيق تغريبه وفرض الهيمنة عليه من ناحية أخرى)⁽²⁾.

هذا هو الاستشراق بمفهومه الواسع، وهناك مفهوم خاص يُعنى بالدراسات المتعلقة «بالشرق الأوسط»، يتناول لغته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام، ويطلق على الذين يقومون بتلك الدراسات (بالمستعربين)⁽³⁾.

وكان هدف الغربيين من هذا الإطلاق العام للاستشراق الذي يشمل الشرق والشرقيين كلهم - مسلمين أو غير مسلمين - أن يكون غطاءاً للهدف الحقيقي، الذي هو في حقيقة أمره دراسة كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين لخدمة أغراض التنصير من جهة، وأغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى، ثم لإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية والعمل على تجزئتها وتفكيك وحدتها⁽⁴⁾.

وعليه فإن العلاقة وثيقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي، فقد أطلق على الدراسة التي تعني بالعالم الشرقي مصطلح الاستشراق، وأطلق على الغربيين الذي يقومون بتلك الدراسات بالمستشرقين وعرفهم الباحثون «بأنهم جماعة من المؤرخين والكتاب الأجانب الذين خصصوا جزءاً من حياتهم في دراسة وتتبع المواضيع التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية للشرق الإسلامي»⁽⁵⁾. وعرفهم آخرون أي، المستشرقين (كل من تجرد من أهل الغرب في دراسة بعض اللغات الشرقية وتقصي آدابها طلباً لمعرفة شؤون أمة من الأمم الشرقية من حيث تاريخها وعلومها وديانها وغير ذلك. والمستشرقون اسم واسع يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين

1 مطبقاني، المصدر السابق، ص6.
 2 رجب عبد المرحي عامر، الرؤية الاستشراقية للأحرف السبعة والقراءات القرآنية، ص5.
 3 فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى)، منشورات الأهلية (عمان، 1998)، ص30.
 4 عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، ط8، دار القلم (دم، 2000)، ص120.
 5 فوزي، المصدر السابق، ص30؛ عبد الجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، منشورات دار الجاحظ (بغداد، 1981)، ص23.

الدراسات الشرقية المختلفة، فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بالهند والفرس والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق⁽¹⁾. ويقول العقيلي «قد نال المستشرقون اهتماماً متزايداً وعناية خاصة من لدن الحكومات الغربية، فقد وطد الحكام صلتهم بالمستشرقين فضموهم إلى حاشيتهم أمناء لأسرارهم، وانتدبوهم سفراء وقناصل وتراجم وموظفين في سلكي الجيش والسياسة إلى بلدان الشرق العربي الإسلامي. ومنحوهم ألقاب الشرق الفخمة (كبارون وكونت) وولّوهم مقاعد التدريس في أشهر الجامعات، ومنحوهم عضوية المجامع الكبرى، وأنفقوا على مطبوعاتهم وبعثوهم للقيام برحلات عديدة أموالاً طائلة»⁽²⁾.

ويمكننا تعريف الاستشراق بكل ما يصدر عن الغربيين والأمريكيين من إنتاج فكري وإعلامي وتقارير سياسية واستخباراتية حول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة أو الفكر أو الفن، ويمكننا أن نلحق بالاستشراق ما يكتبه النصارى العرب من أقباط ومارونيين وغيرهم ممن ينظر إلى الإسلام من خلال المنظار الغربي، ويلحق به أيضاً ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين وتبنوا كثيراً من أفكار المستشرقين⁽³⁾.

إن الحضور العربي من النصارى المارونيين واضح في مسيرة الاستشراق إذ يتجلى ذلك في المدرسة المارونية في روما، والتي قامت الكنيسة البابوية بتهيئة خريجي هذه المدرسة التي كان تلاميذها يجيدون اللغة العربية، لأنهم جميعاً لبنانيون، حيث أسهم هؤلاء إسهاماً فاعلاً في خدمة المؤسسات التنصيرية وفي بعض الأعمال المهمة في ميدان الاستشراق، وريادتهم ميدان فهرسة المخطوطات الشرقية في المكتبات الأوروبية. أو في مجال تقديم المعلومات عن الشرق العربي الإسلامي، أو في مجال قيامهم بالتدريس في ما يخص الشرق من أديان ولغات وتاريخ⁽⁴⁾، وكان لعائلة (السمعاني) من بين هؤلاء نصيب، فقد اشتهر نفرٌ منهم بتدريس اللغة العربية والسريانية، إذ كانوا غالباً ما يتعلمون في روما ويعملون في بلادهم، ثم يعودون أدرأجهم من جديد إلى روما للعمل والاستقرار، حيث يجد المستشرقون فرصة للإفادة من مواهبهم، والتي يبدو أنها كانت مطلوبة في دوائر الاستشراق في أوروبا⁽⁵⁾.

- 1 الشاوي، المصدر السابق، ص 84.
- 2 دريد عبد القادر نوري وآخرون، المستشرقون والدراسات الإسلامية، ط 1، دار ابن الأثير (الموصل، 2008)، ص 199-200.
- 3 مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ص 2، مستل من شبكة الاتصالات الدولية (الانترنت)، الموقع: مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق.
- 4 وعد سعيد الأعرجي، أثر الدافع الديني في توجه القوى الغربية إلى الشرق العربي الإسلامي 1500-1914، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد، 2005، ص 99.
- 5 رشا الخطيب، إسهامات عربية في مسيرة الاستشراق الأوروبي، مستل من شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، الموقع: <http://www.voiceofarabic.net>

وتشير المصادر إلى أن عدداً من المطابع الشرقية التي أنشئت في أوروبا كانت إدارتها من نصيب بعض النصارى العرب، ومنها على سبيل المثال: «المطبعة السريانية» التي أسسها ميخائيل الطوشي وإبراهيم الغزيري في روما عام (1696)، و«المطبعة الشرقية الغربية» التي أسسها يعقوب قمر في روما 1595. و«المطبعة المديتشيّة» التي تولى بطرس مبارك إدارتها في القرن السابع عشر.

هذه الأعمال وغيرها تقدّم مثلاً على إسهامات النصارى من العرب أنفسهم في مسيرة الاستشراق الأوروبي، وإنه مما لا يغيب عن عين الملاحظ أن معظم الأعمال التي قدّمها النصارى العرب في مسيرة الاستشراق الأوروبي قد صدرت عن أبناء الطوائف المسيحية في المجتمع العربي، والذين كانت إسهاماتهم متجهةً صوب شؤون تلك الطوائف التي أولتها الكنيسة الأوروبية اهتماماً خاصاً⁽¹⁾.

أما عن تلاميذ المستشرقين المخلصين للنظرة الاستشراقية فيجب دراستهم عن أنهم أتباع للاستشراق، ويلاحظ اهتمام المستشرقين وأقسام الدراسات العربية الإسلامية ومراكز البحوث وأقسام الشرق الأوسط بدعم إنتاج تلاميذهم فقد قامت كبرى دور النشر الجامعية والتجارية بنشر إنتاجهم ومن الأمثلة على ذلك: كتب عزيز العظمة، وصادق العظم، وفاطمة المرينسي، نوال السعداوي ومحمد عبد الحي شعبان وغيرهم⁽²⁾.

كان الاستشراق وما زال يهتم بالشعوب الشرقية عموماً والتي تضم الهند وجنوب شرق آسيا والصين واليابان وكوريا. وعند مراجعة النشاطات الاستشراقية نجد أن هذه المناطق بدأت تخصص دراسات خاصة بها، مثل الدراسات الصينية أو الدراسات الهندية أو الدراسات اليابانية، أما في الأصل فكانت كلها تضم تحت مصطلح واحد هو (الاستشراق).

ومن هنا يتبين لنا أن الاستشراق هو دراسة الغرب لعقائد وأخلاق الشرق وإن كان قد اقتصر في الآونة الأخيرة على الشعوب المسلمة ودراسة الناحية الدينية من أجل القضاء على الإسلام وأهله.

والمعنى الخاص للاستشراق هو الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الأوسط الإسلامي في عقائده وأخلاقه وعاداته وتقاليده وتشريعاته بغية الانتقاد والنيل منه. فلقد ظهرت حملات مسعورة ضد أمتنا الإسلامية وتاريخها المشرق يقودها بعض المنصرين، والمستشرقين وكذلك، وللأسف الشديد بعض من أبناء الأمة الإسلامية الذين رباهم المستشرقون، ونفثوا السموم في

1 المصدر نفسه.

2 مازن مطبقاني، جولة في عالم الاستشراق، مستل من شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، الموقع : <http://mrs.8k.com>

عقولهم، أصبحوا يرددون ما يقوله بعض أساتذتهم المستشرقين دون تروُّ أو تعقُّل، أو حتى دون بذل قليل من الجهد للبحث عن الحق والصواب⁽¹⁾.

فالمستشرق إذن هو ابن بيئته ولا بد أن يتأثر بكل ما كتب عن الإسلام والمسلمين وما قرأه في مجتمعه من صور باطلة وافتراءات مزيفة⁽²⁾. يقول الدكتور البهي « لا يعرف العقل ولا المنطق حداً لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الإسلامي وتشويه لمبادئ الإسلام وثقافته، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله، وهم كذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي لعبه الإسلام في تاريخ الثقافة الإنسانية. إن المستشرقين جميعاً فيهم قدر مشترك من هذا الجانب والتفاوت - إن وجد بينهم - إنما في الدرجة فقط فبعضهم أكثر تعصباً ضد الإسلام وعداوة له من البعض الآخر⁽³⁾. وفي هذا الشأن يؤكد المستشرق «برنارد لويس» Bernard Lewis⁽⁴⁾ قائلاً: (لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوفة في البحوث العلمية)⁽⁵⁾. فهو إذا اخترع غربي كانت دوافعه تحيزات الغرب متمثلة في مصالحه واتجاهه العدائي نحو الشرق، فالاستشراق يمثل التاريخ الطويل للصراع الديني والسياسي والثقافي بين الشرق

1 مازن صلاح مطبقي، الاستشراق، مستل من شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، الموقع: <http://www.airssforum.com>

2 فوزي، المصدر السابق، ص 29.

3 نوري وآخرون، المصدر السابق، ص 200.

4 يبلغ من العمر اليوم 95 عاماً، ولد «برنارد لويس» في المملكة المتحدة. عام (1916)، تابع دراسته في القانون و تخصص في دراسة الإسلام. إبان الحرب العالمية الثانية، خدم في مصلحة الاستعلامات التابعة للجيش، و في المكتب العربي التابع لـ "فريغن أوفيس". في الستينات، صار خبيراً مسموعاً في المؤسسة البريطانية (Royal Institute of International Affairs) التي ظهرت كمؤسسة اختصاصية في التدخل الإنساني البريطاني في الإمبراطورية العثمانية و آخر المدافعين عن الإمبراطورية البريطانية. تحت رعاية السي إي أي (مكتب الاستعلامات الأمريكية) شارك في المؤتمر لأجل حرية الثقافة الذي سمح له بإصدار كتابه "الشرق الأوسط والغرب" وفي عام 1974 هاجر إلى الولايات الأمريكية. عمل كأستاذ في "برانستون" وبعد حصوله على الجنسية الأمريكية، صار فيما بعد متعاوناً مع "بيغوين بريجنيسكي" مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر وعملوا معاً على صياغة نظرية "قوس الاتوازن" و وضع قيد العمل خطة تفكيك النظام الشيوعي في أفغانستان. في فرنسا، تقلد برنارد لويس منصب عضو في مؤسسة "سانت سيمون" الأطلنطية التي أدارها في عام (1993)، ويعد لويس من أغزر المستشرقين إنتاجاً (وإن كان له قدرة على إعادة نشر بعض ما سبق نشره بصور أخرى) وقد تنوعت اهتماماته من التاريخ الإسلامي حيث كتب عن الإسماعيلية وعن الحشاشين وعن الطوائف المختلفة في المجتمع الإسلامي، إلى الحديث عن المجتمع الإسلامي ولكنه في السنوات الأخيرة وقبل تقاعده بقليل بدأ الاهتمام بقضايا العالم العربي والإسلامي المعاصرة فكتب عن الحركات الإسلامية (الأصولية) وعن الإسلام والديموقراطية. انظر: C. E. Bosworth, et al.(ed.) The Islamic World From Classical To Modern Times (Princeton, 1989) p. IX-X and Also Who's Who in the USA 1989 التاريخ الإسلامي، ص 69 وما بعدها؛ مطبقي، الاستشراق...، ص 24؛ ريتشارد نيكسون، ما وراء السلام، ترجمة مالك عباس، (عمان، 1995)، ص 5.

رأية عبد الرحمن المدهون، الإسلام في الغرب بعد 11 سبتمبر، مقال منشور على شبكة الاتصالات الدولية (الانترنت). الموقع: www.ann.net

5 فوزي، المصدر السابق، ص 29.

ج - نهج حديث لمصطلح الاستشراق:

ويجب أن نتوقف عند القرار الغربي بالتوقف عن استخدام مصطلح استشراق أو كما قال لويس إن هذا المصطلح قد ألقى به في مزابل التاريخ. فقد رأى الغرب أن هذا المصطلح ينطوي على حمولات تاريخية ودلالات سلبية ولم يعد يفي بوصف الباحثين المتخصصين في العالم الإسلامي. فكان من قرارات منظمة المؤتمرات العالمية في مؤتمرها الذي عقد في باريس عام (1973) أن يتم الاستغناء عن هذا المصطلح، وأن يطلق على هذه المنظمة (المؤتمرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا ICHSANA)⁽²⁾.

وعقدت هذه المنظمة مؤتمرين تحت هذا العنوان إلى أن تم تغييره مرة ثانية إلى (المؤتمرات العالمية للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية ICANAS). وقد عارض هذا القرار دول الكتلة الشرقية (روسيا والدول التي كانت تدور في فلكها) ومع ذلك وفي المؤتمر الدولي الخامس والثلاثين للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية الذي عقد في عام (1997) في بودابست بالمجر كان مصطلح استشراق ومستشرقين يستخدم دون أي تحفظات، مما يعني أن الأوروبيين الغربيين والأمريكيين هم الأكثر اعتراضاً على هذا المصطلح ولعل هذه مناورة تسمح لهم بالتحدث عن المستشرقين ليثبتوا أنهم غير ذلك وأنهم مستعربون (Arabists) أو إسلاميون (Islamists) أو باحثون في العلوم الإنسانية (Humanists) أو متخصصون في الدراسات الإقليمية أو الاجتماعية أو الاقتصادية التي تختص ببلد معين أو منطقة جغرافية معينة. أما موقفنا نحن من هذا التخصص أو التخصصات فإنه يسعنا ما وسع الغربيين فإن هم اختاروا أن يتركوا التسمية فلا بأس من ذلك شريطة أن لا نغفل عن استمرار اهتمامهم بدراسات والكتابة حول قضايانا وعقد المؤتمرات والندوات ونشر الكتب والدوريات حول العالم الإسلامي واستمرار أهداف الاستشراق. وأن لا يصرفنا تغيير الاسم عن الوعي والانتباه لما يكتبونه وينشرونه⁽³⁾.

وعلى الرغم من هذا النهج الجديد ألا أن مصطلح «الاستشراق» سيظل هو المستخدم إلى حين رغم مزاحمة المصطلحات الجديدة له، ذلك أن ما أنتج على مدى القرون الماضية من دراسات وبحوث وآراء ونظريات تحت اسم الاستشراق لا يتوقع له أن يزول لمجرد أن هناك محاولات معاصرة للانسلاخ من المصطلح والدخول في مصطلح جديد، بل في مصطلحات جديدة، لا

1 توفيق مرعي وآخرون، دراسات في التاريخ والحضارة، ط1، (عمان، 1985)، ص240.

2 مطبقاني، المصدر السابق، ص5.

3 المصدر نفسه، ص5.

تعدو أن تكون تغييراً طفيفاً على الاسم بينما المسمى باق بكل ما يحمله من دلالات⁽¹⁾. وتقول المستشرقة الفرنسية «كلود أوديير» عن هذا التطور في مواضع الاستشراق «يتعلق الاستشراق اليوم بالتخصصات، وليس الاستشراق عندهم هدفاً بقدر ما يعد امتداداً لتخصصهم الأصلي ومتعلقاً به. وأشك أن مفهوم الاستشراق الكلاسيكي مازال موجوداً بالمفهوم الحديث»⁽²⁾.

1 علي بن إبراهيم الحمد النملة، المستشرقون والتنصير، ط1، [ضمن مجموعة كتب من موقع الإسلام، تقيمها غير مطابق للمطبوع، مستل من شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، الموقع: <http://www.al-islam.com>

2 محمد بشارى، الأقليات الإسلامية دوافع الاستقرار - عوامل التأقلم حقوق المواطنة، (الإسلام والغرب الماضي - الحاضر - المستقبل)، بحوث ووقائع المؤتمر العام التاسع للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (القاهرة، 1998)، ص504-505.

ثانياً - التكوين التاريخي للاستشراق (النشأة والتطور):

لقد نشأت العلاقة بين الشرق والغرب منذ أقدم عصور التاريخ، وهذا لطبيعة موقعهما الجغرافي ومركزهما الخطير فيه، وبسبب هذه العلاقة كان لابد لأحدهما أن يهتم بالآخر، وليس عجباً أن يظفر الشرق بمزيد من العناية لسحره الروحي وعظمته الخالدة وتاريخه الحافل بالأمجاد والبطولات، ففيه نشأت حضارات وتأسست ثقافات، وابتدعت آداب وولدت فلسفات وقامت ثورات، ونزلت أديان ووضعت نظم، ورسمت سياسات فكان ولم يزل منطقة صراع عنيف دائم ومسرحاً للانقلابات السياسية والفكرية والاجتماعية.

ومهما تكن أهمية تلك العلاقة، فإن الذي يهمنا في هذا المبحث هو نشأة الاستشراق وأطواره؛ فالاستشراق يمثل حركة متواصلة الحلقات، يحاول فيها الغرب التعرف على الشرق علمياً ودينياً وفكرياً وأديباً، ثم استغلاله اقتصادياً وثقافياً واستراتيجياً وجعله منطقة نفوذ له يسيطر بها على العالم بأسره⁽¹⁾.

أ - آراء في تحديد نشأة الاستشراق:

يرى المتتبع الفاحص لما احتوته الكتب والدراسات التي تبحث في تاريخ نشوء الاستشراق وبداياته التكوينية والأدوار التي مر بها، ومن خلال دراسته من قبل الباحثين تبين في مضامينه بأنه غالباً ما يكشف عن وحدة الرأي في طبيعة النشوء وصبغته، من أنه نشأ وبدأ تبشيراً في روحه وأهدافه، إلا أنهم يختلفون في زمان نشأته وبدايته بالمعنى المصطلح.

وللباحثين آراء متباينة في تحديد تاريخ حركة الاستشراق ومنشئها؛ لأنها لم تبدأ بصورة منظمة أو بتخطيط سابق، بل كانت في البداية جهوداً فردية وعفوية؛ من هنا كان صعباً على الباحثين التعرف على التاريخ بالدقة والتحديد.

وبعد أن ظهرت هذه الحركة شيئاً فشيئاً واتضح أفكارها عند أهلها وقويت شوكتها، أصبح لها مسار مخصص، ومنهج مميز، وكوادر ومنظمات ومؤسسات⁽²⁾. لكن من يحاول الخوض في معرفة بداية الاستشراق يجد نفسه يخوض في عباب بحر تتلاطم فيه آراء متناقضة أحياناً، والسبب الأساسي يعود إلى تباين مفهوم الاستشراق نفسه لدى المعنيين بالأمر، واختلاف زوايا الرؤى والطروحات الفكرية⁽³⁾. وسوف أقوم بتقسيم النشأة على ضوء تضارب الآراء والأقوال فيها، خالية من التواريخ التي لم يقع الإجماع عليها، ثم أذكر السبب الباعث على نشأة

1 مراد، ردود على شبهات...، ص42.

2 محمد أشرف علي المليباري، أهداف الترجمات الاستشراقية لمعاني القرآن الكريم ودوافعها، ندوة القرآن الكريم للدراسات الاستشراقية، (المملكة العربية السعودية)، ص7.

3 محسن محمد حسين، الاستشراق بروية شرقية، ط1، دار الوراق (بغداد، 2011)، ص63.

الاستشراق، وإن كانت أسبابه متعددة إلا أنني سأركز على السبب الديني، لأنه يقف على بواعث نشأة الاستشراق.

اختلفت آراء الباحثين حول بدايات ظهور الاستشراق التي لا تزال حتى الآن - ولكن في صور مختلفة، فيرى البعض أن بدايته ترجع إلى يوم لقاء الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - بنصاري نجران، ومنهم من يرجعه إلى عهد هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة⁽¹⁾، وتحول النجاشي ملك الحبشة من النصرانية إلى الإسلام، وكانت الفرصة الثانية في تعرف النصاري على الإسلام حينما بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - رسله إلى الملوك خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام⁽²⁾. كما أن هناك رأياً يقول أن بداية الاستشراق كان مع أول احتكاك عسكري بين الإسلام والنصرانية خلال تحرك القوة الإسلامية الضاربة إلى شمال جزيرة العرب في غزوة مؤتة عام (629م)، ولما كانت الغلبة للإسلام، كانت النتيجة الحتمية زيادة حقدهم على الإسلام وأهله إذ رأى الغربيون أن هذه الفترة الجديدة تشكل تهديداً خطيراً للشعوب التي لا تدين بالإسلام⁽³⁾. بينما يرجعه كثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري.

وقد نشط في الشام بواسطة الراهب يوحنا الدمشقي 676-749 John of Damascus (4) الذي درس الإسلام في كتابين، الأول: «حياة محمد». والثاني: «حوار بين مسيحي ومسلم». وكان هدفه إرشاد النصاري في جدل المسلمين⁽⁵⁾. حتى يدروا بهما دعوة الإسلام «الجديدة».

- 1 محمد وقبع الله أحمد، الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، بحث مقدم لنيل جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية للسنّة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة لعام 2006، ص 47.
- 2 مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق، مركز المدينة المنورة، (دم، دت)، ص 7.
- 3 عبد الرحمن عميرة، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، ط1، دار الجيل (بيروت، 1999)، ص 92.
- 4 أحد أكبر آباء الكنيسة الأرثوذكسية، وبسبب قيمته الدينية الكبرى نال لقبين ذوي شأن فلقب " يوحنا الدمشقي " أو "القديس يوحنا الدمشقي (باليونانية: Ιωάννης Δαμασκῆνος Iōannēs Damaskēnos، باللاتينية: Iohannes Damascenus) ولد باسم منصور بن سرجون التغلبي عام 676 في دمشق خلال حكم الدولة الأموية، من عائلة مسيحية. وبحكم كونه في خط الصراع الأول ضد الإسلام فقد سارع بالعكوف على القرآن الكريم تلبية ونبشاً، مسخراً إتقانه العربية، وموظفاً إمامه بالبيئة الثقافية الإسلامية التي يعيش في رحابها ويعايش أعلى مستوياتها العلمية والسلطوية إذ كان والده يعمل وزيراً في بلاط الخلافة الأموية وكذلك كان يعمل جده رئيساً لديوان الجباية المالية فيها. وقد شغل يوحنا الدمشقي نفسه هذه الوظيفة فترة من الزمن، ومن ثم دخل إلى دير القديس سابا قرب القدس في فلسطين، وتميز بمؤلفاته اللاهوتية الفلسفية العديدة ودفاعه الشديد عن العقائد المسيحية ورده على "الهرطقات المختلفة خصوصاً فيما يتعلق بتكرير الأيقونات. يعتبر يوحنا الدمشقي آخر آباء الكنيسة الشرقية بإجماع الباحثين. وقد شكلت مؤلفاته مرجعاً مهماً لجميع لاهوتيي القرون الوسطى حتى أن القديس «توما الإكويني» يستشهد به في مؤلفاته، كما ألف عدداً من التراجم الكنسية التي لا تزال مستعملة في طقوس الكنيسة البيزنطية حتى اليوم. انظر: عبد الراضي محمد عبد المحسن، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم (دت، د. م)، ص 29؛ أسعد مفرج، موسوعة عالم السياسة؛ ج 8، دار نوبلس (بيروت، 2006)، ص 106-107؛ إبراهيم عوض، يوحنا الدمشقي رائد الكتابات التشيعية ضد الإسلام. مقال منشور على شبكة الاتصالات الدولية (الانترنت).
- 5 محمد فتح الله الزيايدي: الاستشراق أهدافه ووسائله، ص 24؛ سعد الدين السيد صالح، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، ط 7، الناشر مكتبة الصحابة (الشارقة، 2000)، ص 111.